مجموعة سيرة الرسول ﷺ

باشراف

محمد أحمد برانق

(٢١)

فتح مكة

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا)

كَانَ رَسُولُ اللهِ تَوَّاقًا إِلَى أَنْ يُحَقِّقَ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ فَتْحَ مَكَّةَ سَرِيعًا لِيَعُودُوا إِلَيْهَا

وَكَانَ مِنْ نُصُوصِ عَهْدِ الْحُدَيْبِيَةِ الَّذِى عُقِدَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ . نَصٌّ يُوجِبُ الْهُدْنَةَ بَيْنَهُمَا لِمُدَّةٍ مَدَاهَا سَنَتَانِ . لاَ يَتَعَرَّضُ فِيهِمَا أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ لِلْفَرِيقِ الآخَرِ بِحَرْبٍ أَوْ بِقِتَالٍ وَكَانَ فِى هٰذَا النَّصِّ أَنَّ مَنْ أَرَادَ مِنْ قَبَائِلِ

الْعَرَبِ الدُّخُولَ فِى هٰذَا الْعَهْدِ، فَلَهُ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ. فَدَخَلَتْ حِينَ ذَاكَ قَبَائِلُ خُزَاعَةَ إِلَى جَانِبِ مُحَمَّدٍ. وَدَخَلَتْ قَبَائِلُ بَنِى بَكْرٍ إِلَى جَانِبِ قُرَيْشٍ

وَمَرَّتِ الأَيَّامُ لاَ يَتَعَرَّضُ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ لِقُرَيْشٍ وَلاَ لِحُلَفَائِهِمْ. وَلاَ تَتَعَرَّضُ قُرَيْشٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَلاَ لِمَنْ فِى عَهْدِهِمْ إِلَى أَنْ كَانَتْ مَوْقِعَةُ مُؤْتَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ جَيْشِ الرُّومَانِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ. وَمَا كَانَ فِيهَا مِنَ انْسِحَابِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ تَحْتَ إِمَارَةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَعَوْدَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ. وَمَا كَانَ مِنْ غَضَبِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَلَى الْجَيْشِ الْمُنْسَحِبِ حَتَّى رَمَوْا رِجَالَهُ بِالْجُبْنِ وَالْفِرَارِ. وَلٰكِنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَغْضَبْ. بَلْ كَانَ يَقُولُ فِى ذٰلِكَ عَنْ رِجَالِ الْجَيْشِ:

لَيْسُوا بِالْفُرَّارِ. وَلٰكِنَّهُمُ الْكُرَّارُ إِنْ شَاءَ اللهُ

كَانَ مِنْ ذٰلِكَ أَنِ ابْتَدَأَ الاِسْتِخْفَافُ بِالْمُسْلِمِينَ يَشِيعُ بَيْنَ بَعْضِ الْقَبَائِلِ الَّتِى كَانَتْ قَدْ رَهِبَتْهُمْ. وَخَشِيَتْ جَانِبَهُمْ. وَكَانَ أَنِ ابْتَدَأَ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَعْمَلُونَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ وَاجِبِ احْتِرَامِهِمْ لِلْمُعَاهَدَةِ الَّتِى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ

الْمُسْلِمِينَ

وَفِى الْحَقِّ أَنَّ الأَثَرَ الَّذِى تَرَكَهُ انْسِحَابُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مُؤْتَةَ فِى نُفُوسِ قُرَيْشٍ وَالْقَبَائِلِ الْمُتَاخِمَةِ لَهَا . وَالْقَرِيبَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ . كَانَ يَخْتَلِفُ كُلَّ الاِخْتِلاَفِ عَنْهُ فِى الْقَبَائِلِ الَّتِى كَانَتْ قَرِيبَةً مِنَ الْمَوْقِعَةِ نَفْسِهَا فَإِنَّ هٰذِهِ الأَخِيرَةَ اعْتَبَرَتِ الْمُنَاوَرَةَ الَّتِى انْسَحَبَ بِهَا جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِى عِدَّةُ رِجَالِهِ ثَلاَثَةُ آلاَفٍ مِنْ أَمَامِ جَيْشِ الرُّومِ الَّذِى عِدَّةُ رِجَالِهِ أَضْعَافُ هٰذَا الْعَدَدِ . مُنَاوَرَةً بَارِعَةً ، بَلْ مُعْجِزَةً قَلَّ أَنْ تُصَادِفَ جَيْشًا كَهٰذَا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ يَدُ اللهِ فِى جَانِبِهِ

ثُمَّ كَانَ مِنْ إِعْجَابِ هٰذِهِ الْقَبَائِلِ بِالْمُسْلِمِينَ ، وَبِشِدَّةِ إِيمَانِهِمْ : أَنْ مَالَتْ قُلُوبُ الْكَثِيرِينَ مِنْ رِجَالِهَا لِلإِسْلاَمِ . وَكَانَ مِنْ إِعْجَابِ رِجَالِ الْعَرَبِ الَّذِينَ كَانُوا يُقَاتِلُونَ إِلَى جَانِبِ الرُّومِ بِسَالَةَ الْمُسْلِمِينَ . وَشَجَاعَتِهِمْ . وَشِدَّةِ مِرَاسِهِمْ فِى الْقِتَالِ . أَنَّهُمْ مَا كَادُوا يَشْعُرُونَ بِالتَّفْرِقَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِى يُعَامِلُهُمْ بِهَا الْقُوَّادُ عَنِ الْمُعَامَلَةِ الَّتِى يُعَامِلُونَ بِهَا عَسْكَرَ الرُّومِ حَتَّى انْصَرَفُوا عَنْهُمْ وَمِنْ

ثَمَّةَ كَسَبَ الإِسْلاَمُ الَّذِى لاَ يَعْرِفُ التَّفْرِقَةَ مَكْسَبًا عَظِيمًا

ثُمَّ كَانَ هُنَاكَ أَيْضًا مَكْسَبٌ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَاءِ مَا عَمِلُوهُ فِى سَبِيلِ اسْتِرْدَادِ هَيْبَتِهِمْ

فَقَدْ بَعَثَ مُحَمَّدٌ بِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فِى جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بَعْضِ الْقَبَائِلِ الَّتِى تَقْطُنُ شَمَالَ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ بِالْقُرْبِ مِنْ مَشَارِفِ الشَّامِ لأَنَّ أُمَّ عَمْرٍو كَانَتْ مِنْ هٰذِهِ النَّوَاحِى ، فَكَانَ مِنَ السَّهْلِ عَلَى عَمْرٍو أَنْ يَتَأَلَّفَهُمْ . وَكَانَ مِنَ الْيَسِيرِ عَلَى هٰذِهِ النَّوَاحِى أَنْ يَثِقُوا بِهِ

وَلٰكِنَّ عَمْرًا مَا كَادَ يَصِلُ فِى سَيْرِهِ إِلَيْهِمْ إِلَى مَاءٍ هُنَاكَ يُسَمَّى السَّلْسَلَ ، حَتَّى تَوَقَّفَ فِى سَيْرِهِ وَقَدْ خَشِىَ مَغَبَّةَ تَأَلُّبِ الْقَبَائِلِ عَلَيْهِ . وَخَافَ غَدْرَهَا وَقِتَالَهَا . فَبَعَثَ إِلَى النَّبِىِّ يَطْلُبُ مَدَدًا وَأَرْسَلَ النَّبِىُّ الْمَدَدَ بِقِيَادَةِ أَبِى عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ . وَقَدْ أَوْصَاهُ أَلاَ يَخْتَلِفَ مَعَ عَمْرٍو

فَلَمَّا الْتَقَى أَبُو عُبَيْدَةَ بِعَمْرٍو . وَكُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى قِيَادَةِ رِجَالِهِ . لَمْ يَرْضَ عَمْرٌو ذٰلِكَ بَلْ قَالَ لأَبِى عُبَيْدَةَ : إِنَّمَا جِئْتَ مَدَدًا لِى

وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ عَلَى شَجَاعَتِهِ وَدِرَايَتِهِ رَجُلاً سَهْلاً هَيِّنًا . فَنَزَلَ عَلَى إِرَادَةِ عَمْرٍو . وَرَضِيَ لَهُ بِالْقِيَادَةِ عَلَيْهِ . وَهُوَ يَقُولُ :

يَا عَمْرُو . إِنَّ آخِرَ كَلِمَةٍ قَالَهَا الرَّسُولُ لِى : لاَ تَخْتَلِفَا

وَقَادَ عَمْرٌو الرِّجَالَ جَمِيعًا . فَدَوَّخَ بِهِمُ الْقَبَائِلَ الَّتِى خَرَجَ إِلَيْهَا ؛ وَطَارَدَهَا مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ حَتَّى شَتَّتَ جُمُوعَهَا . وَجَعَلَ الرُّعْبَ وَالرَّهْبَةَ يَسْتَوْلِيَانِ عَلَى قُلُوبِ رِجَالِهَا

وَبِذٰلِكَ وَبِمِثْلِهِ عَادَتْ هَيْبَةُ الْمُسْلِمِينَ تَحْتَلُّ قُلُوبَ الْقَبَائِلِ الَّتِى كَانَتْ قَدْ بَدَأَتْ تَزْدَرِيهِمْ وَتَسْتَخِفُّ بِهِمْ

أَمَّا مَا كَانَ مِنْ قُرَيْشٍ . وَمَا كَانَ مِنْ حُلَفَائِهَا بَنِى بَكْرٍ . فَقَدْ نَقَضَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِى بَكْرٍ حِلْفَهُمْ بِأَنِ انْقَضُّوا عَلَى قَبِيلَةِ خُزَاعَةَ حَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ لَيْلاً وَهِىَ عَلَى مَاءٍ لَهَا بِالْقُرْبِ مِنْ مَكَّةَ . فَقَاتَلُوهَا بِثَارَاتِهِمْ وَضَغَائِنِهِمُ الْقَدِيمَةِ الَّتِى كَانَ عَهْدُ الْحُدَيْبِيَةِ قَدْ فَصَلَ بَيْنَهُمْ فِيهَا . وَأَعَانَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ بِالسِّلاَحِ جَمَاعَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ . وَقَاتَلُوا إِلَى جَانِبِهِمْ مُسْتَخْفِينَ حَتَّى لاَ يُتَّهَمُوا بِنَقْضِ الْعَهْدِ

وَدَخَلَتْ خُزَاعَةُ مَكَّةَ مُسْتَعْصِمَةً بِالْحَرَمِ ، وَلَجَأَتْ إِلَى دَارِ بُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيِّ . وَكَانَ يُقِيمُ بِمَكَّةَ ، فَاسْتَنْجَدَتْ بِهِ .

وَقَصَدَ عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ الْخُزَاعِيُّ إِلَى الْمَدِينَةِ . حَيْثُ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ . وَهُوَ بِالْمَسْجِدِ بَيْنَ النَّاسِ ، فَقَصَّ عَلَيْهِ مَا كَانَ مِنْ بَنِى بَكْرٍ وَقُرَيْشٍ لِخُزَاعَةَ ، وَكَيْفَ قَاتَلُوهُمْ غَدْرًا فَنَقَضُوا بِذٰلِكَ الْمِيثَاقَ الَّذِى عَقَدُوهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ جَمِيعًا ، وَطَلَبَ مِنَ الرَّسُولِ أَنْ يَعْمَلَ عَلَى نَجْدَتِهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ .

وَاسْتَمَعَ الرَّسُولُ إِلَى مَقَالَةِ عَمْرِو بْنِ سَالِمٍ . فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ : نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ . فَأَدْرَكَ النَّاسُ أَنَّ الرَّسُولَ لَنْ يَسْكُتَ عَلَى نَقْضِ بَنِى بَكْرٍ وَقُرَيْشٍ عَهْدَهُمْ لِخُزَاعَةَ وَلِلْمُسْلِمِينَ .

أَمَّا بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الَّذِى اسْتَنْجَدَ بِهِ قَوْمُهُ ، فَقَدْ خَرَجَ هُوَ أَيْضًا فِى نَفَرٍ مِنْ خُزَاعَةَ قَاصِدِينَ رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَعْلَمُوهُ بِمَا كَانَ ، ثُمَّ كَرُّوا رَاجِعِينَ إِلَى مَكَّةَ . وَفِى الطَّرِيقِ إِلَيْهَا الْتَقَوْا بِأَبِى سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ سَيِّدِ قُرَيْشٍ فِى طَرِيقِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ .

وَأَدْرَكَ ابْنُ وَرْقَاءَ وَمَنْ مَعَهُ أَنَّ مَا حَمَلَ أَبَا سُفْيَانَ عَلَى أَنْ يَقْصِدَ مُحَمَّدًا هُوَ شُعُورُ قُرَيْشٍ بِفَظَاعَةِ مَا حَدَثَ مِنْ بَعْضِ رِجَالِهَا لِخُزَاعَةَ.

وَأَدْرَكَ أَبُو سُفْيَانَ أَنَّ بُدَيْلاً مَا أَتَى إِلاَّ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ فَسَأَلَهُ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ يَا بُدَيْلُ؟

فَأَخْفَى بُدَيْلٌ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ مَا كَانَ مِنْ ذَهَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلٰكِنَّ أَبَا سُفْيَانَ لَمْ يَكُنْ لِيُصَدِّقَ إِنْكَارَ بُدَيْلٍ ذٰلِكَ. فَلَمَّا رَحَلَ بُدَيْلٌ وَأَصْحَابُهُ. سَارَ إِلَى مَبْرَكِ نِيَاقِهِمْ. وَنَظَرَ فِي رَوْثِهَا. فَعَرَفَ فِيهَا النَّوَى مِن عَلَفِ الْمَدِينَةِ فَتَمْتَمَ يَقُولُ:

أَحْلِفُ بِاللهِ لَقَدْ جَاءَ بُدَيْلٌ مُحَمَّدًا

وَعَلَى ذٰلِكَ سَارَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مَا بَعَثَتْهُ فِيهِ عَشِيرَتُهُ. وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ أَلَمَّ بِمَا فَعَلَتْهُ قُرَيْشٌ

فَلَمَّا كَانَ بِالْمَدِينَةِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى رَسُولِ اللهِ مُبَاشَرَةً فِيمَا جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ. فَقَصَدَ إِلَى ابْنَتِهِ أُمِّ حَبِيبَةَ زَوْجِ الرَّسُولِ لِتَكُونَ وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ

وَدَخَلَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى ابْنَتِهِ أُمِّ حَبِيبَةَ ، وَهَمَّ بِالْجُلُوسِ عَلَى فِرَاشِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَأَسْرَعَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ فَطَوَتْهُ عَنْهُ . فَدُهِشَ أَبُو سُفْيَانَ مِنْ تَصَرُّفِ ابْنَتِهِ . وَسَأَلَها : يَا بُنَيَّةُ ، مَا أَدْرِى !! أَرَغِبْتِ بِى عَنِ الْفِرَاشِ . أَمْ رَغِبْتِ بِالْفِرَاشِ عَنِّى ؟!

فَأَجَابَتْ : بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ . وَأَنْتَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ نَجِسٌ ، فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ تَجْلِسَ عَلَيْهِ .

فَغَضِبَ أَبُو سُفْيَانَ وَقَالَ : وَاللهِ يَا بُنَيَّةُ لَقَدْ أَصَابَكِ شَرٌّ بَعْدِى .

وَغَادَرَ أَبُو سُفْيَانَ ابْنَتَهُ قَاصِدًا الرَّسُولَ . فَكَلَّمَهُ فِيمَا أَوْفَدَتْهُ قُرَيْشٌ مِنْ أَجْلِهِ وَهُوَ رَغْبَتُهَا فى زِيَادَةِ مُدَّةِ الْحِلْفِ الَّذِى بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَفِى زِيَادَةِ تَأْكِيدِهِ وَتَثْبِيتِهِ ؛ وَلٰكِنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَرُدَّ عَلَى أَبِى سُفْيَانَ جَوَابًا .

فَتَحَوَّلَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى أَبِى بَكْرٍ يَرْجُو وَسَاطَتَهُ ؛ وَلٰكِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَفَضَ أَنْ يَتَوَسَّطَ لَهُ ؛ فَسَارَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَكَانَ جَوَابُ عُمَرَ لَهُ : أَنَا أَشْفَعُ لَكُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ؟!! وَاللهِ لَوْ لَمْ أَجِدْ إِلاَّ الذَّرَّ لَجَاهَدْتُكُمْ بِهِ .

وَقَصَدَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ . فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَعِنْدَهُ زَوْجُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ الرَّسُولِ وَبَيْنَ يَدَيْهَا وَلَدُهَا الْحَسَنُ . فَعَرَضَ أَبُو سُفْيَانَ الأَمْرَ عَلَى عَلِيٍّ . وَطَلَبَ شَفَاعَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ فِيهِ . وَلٰكِنَّ عَلِيًّا قَالَ : يَا أَبَا سُفْيَانَ ؛ إِنَّ رَسُولَ اللهِ إِذَا اعْتَزَمَ أَمْرًا لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَرُدَّهُ فِيهِ . فَالْتَفَتَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى فَاطِمَةَ ، وَنَاشَدَهَا بِقَوْلِهِ :

يَا فَاطِمَةُ ؛ هَلْ لَكِ أَنْ تَشْفَعِى لِقُرَيْشٍ عِنْدَ أَبِيكِ . فَيَكُونَ ابْنُكِ هٰذَا سَيِّدَ الْعَرَبِ أَبَدَ الدَّهْرِ ؟!

قَالَتْ فَاطِمَةُ : يَا أَبَا حَنْظَلَةَ ، لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِى ذٰلِكَ ، وَمَا أَحَدٌ يُجِيرُ عَلَى رَسُولِ اللهِ .

عِنْدَئِذٍ تَمَلَّكَ الْيَأْسُ أَبَا سُفْيَانَ . وَفَاضَ بِهِ الأَسَى ، فَقَالَ لِعَلِيٍّ يَسْتَشِيرُهُ : يَا أَبَا الْحَسَنِ ؛ إِنَّ الأُمُورَ قَدِ اشْتَدَّتْ عَلَىَّ ، فَمَا الَّذِى تُشِيرُ بِهِ ؟

قَالَ عَلِىٌّ : وَاللهِ مَا أَعْلَمُ شَيْئًا يُغْنِى عَنْكَ ، وَلٰكِنَّكَ سَيِّدُ بَنِى كِنَانَةَ فَقُمْ فَأَجِرْ بَيْنَ النَّاسِ ثُمَّ الْحَقْ بِأَرْضِكَ .

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : أَوَ تَرَى ذٰلِكَ مُغْنِيًا عَنِّى شَيْئًا ؟

أَجَابَ عَلِىٌّ : لاَ وَاللهِ مَا أَظُنُّهُ وَلٰكِنِّى لاَ أَجِدُ لَكَ غَيْرَ ذٰلِكَ فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى الْمَسْجِدِ . وَهُنَاكَ أَعْلَنَ أَنَّهُ قَدْ أَجَارَ بَيْنَ النَّاسِ . ثُمَّ رَكِبَ بَعِيرَهُ وَانْطَلَقَ إِلَى مَكَّةَ

فَلَمَّا كَانَ بِهَا أَسْرَعَ إِلَيْهِ قَوْمُهُ يَسْأَلُونَهُ عَمَّا تَمَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ . فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا كَانَ مِنْ فَشَلِ مَسْعَاهُ . وَبِمَا أَشَارَ عَلِىٌّ عَلَيْهِ بِهِ أَنْ يَفْعَلَهُ . فَهَزُّوا رُءُوسَهُمْ . وَتَحَوَّلُوا عَنْهُ مُغْضَبِينَ ، وَهُمْ يَقُولُونَ ؟ مَا زَادَ عَلِىٌّ عَلَى أَنْ لَعِبَ بِكَ !

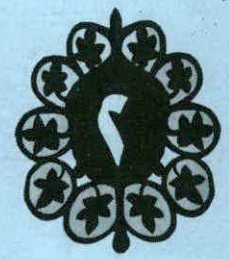

أَمَّا النَّبِىُّ فَكَانَ قَدِ اعْتَزَمَ أَمْرًا عَظِيمًا . !

فَمَا كَادَ أَبُو سُفْيَانَ يُغَادِرُ الْمَدِينَةَ . حَتَّى أَمَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ عَائِشَةَ أَنْ تَشْرَعَ فِى تَجْهِيزِ زَادٍ لِلسَّفَرِ ؛ وَشَرَعَتْ عَائِشَةُ فِى إِعْدَادِ مَا أَمَرَهَا النَّبِىُّ بِهِ . وَبَيْنَمَا هِىَ فِى ذٰلِكَ دَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ فَلَمَّا رَأَى مَا هِىَ بِسَبِيلِهِ سَأَلَهَا : يَا عَائِشَةُ ، أَهَمَّ رَسُولُ اللهِ أَنْ يَغْزُوَ ؟ قَالَتْ : مَا أَدْرِى ؟!

وَأَتَى رَسُولُ اللهِ . فَسَأَلَهُ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللهِ . أَفَأَتَجَهَّزُ ؟ قَالَ الرَّسُولُ :

نَعَمْ.

سَأَلَ أَبُو بَكْرٍ : فَأَيْنَ تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟

قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ : قُرَيْشًا ، وَأَخْفِ ذٰلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ !

وَأَمَرَ مُحَمَّدٌ النَّاسَ بِالاِسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ . وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُمُ الْوِجْهَةَ الَّتِى يَقْصِدُ ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْقَبَائِلِ الْمُوَالِيَةِ لَهُ :

مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَشْهَدْ رَمَضَانَ فِى الْمَدِينَةِ وَاسْتَعَدَّ أَهْلُ الْمَدِينَةِ . وَجَاءَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْقَبَائِلِ بِخَيْلِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ وَعَتَادِهِمْ ، حَتَّى بَلَغَتْ عِدَّتُهُمْ جَمِيعًا عَشْرَةَ آلاَفٍ .

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الْعَاشِرُ مِنْ رَمَضَانَ فِى السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ . وَالْجَيْشُ عَلَى أُهْبَةِ مُغَادَرَةِ الْمَدِينَةِ . أَعْلَنَ مُحَمَّدٌ عَلَى النَّاسِ أَنَّهُ إِنَّمَا خَرَجَ يُرِيدُ مَكَّةَ . ثُمَّ دَعَا اللهَ بِقَوْلِهِ :

اللَّهُمَّ خُذِ الْعُيُونَ وَالأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ حَتَّى لاَ تَعْلَمَ بِمَسِيرِنَا .

وَبَيْنَمَا الْجَيْشُ عَلَى وَشْكِ الْمَسِيرِ . اسْتَدْعَى مُحَمَّدٌ ﷺ ابْنَ عَمِّهِ عَلِيًّا ،

وَابْنَ عَمَّتِهِ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ . وَأَمَرَهُمَا أَنْ يُسْرِعَا فَيُدْرِكَا امْرَأَةً مِنْ مَكَّةَ تُدْعَى سَارَّةَ – هِيَ مَوْلاَةٌ لِبَعْضِ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ – قَدْ أَرْسَلَ مَعَهَا حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ كِتَابًا لأَهْلِ مَكَّةَ يُعَرِّفُهُمْ فِيهِ بِخُرُوجِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ . وَكَانَ حَاطِبٌ مِنْ كِبَارِ رِجَالِ الْمُسْلِمِينَ الْمُصَاحِبِينَ لِلْجَيْشِ وَأَسْرَعَ عَلِيٌّ وَالزُّبَيْرُ يَطْوِيَانِ الأَرْضَ حَتَّى أَدْرَكَا الْمَرْأَةَ . فَسَأَلاَهَا الْكِتَابَ فَأَنْكَرَتْ . فَاسْتَنْزَلاَهَا عَنْ بَعِيرِهَا . وَالْتَمَسَاهُ فِي رَحْلِهَا فَلَمْ يَجِدَا شَيْئًا فَقَالَ عَلِيٌّ لِلْمَرْأَةِ :

وَاللهِ لَتُخْرِجِنَّ لَنَا الْكِتَابَ أَوْ لَنَكْشِفَنَّكِ

فَلَمَّا رَأَتِ الْمَرْأَةُ الْجِدَّ مِنْ عَلِيٍّ قَالَتْ : أَعْرِضْ

فَأَعْرَضَ عَلِيٌّ وَالزُّبَيْرُ . فَأَخْرَجَتِ الْمَرْأَةُ الْكِتَابَ مِنْ بَيْنِ جَدَائِلِ شَعْرِهَا . وَدَفَعَتْهُ إِلَيْهِمَا فَعَادَا بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ

فَدَعَا الرَّسُولُ بِحَاطِبٍ . وَأَرَاهُ الْكِتَابَ ، وَقَالَ لَهُ :

يَا حَاطِبُ : مَا حَمَلَكَ عَلَى هٰذَا ؟!

دَقِيقَةٌ وَلاَ شَكَّ عَصِيبَةٌ عَلَى حَاطِبٍ الَّذِي مَا كَانَ يُعْرَفُ عَنْهُ إِلاَّ الإِخْلاَصُ

لِلإِسْلامِ وَلِلْمُسْلِمِينَ . . !

وَقَالَ حَاطِبٌ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَمَا وَاللهِ إِنِّى لَمُؤْمِنٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ مَا غَيَّرْتُ وَمَا بَدَّلْتُ ، وَلٰكِنِّى امْرُؤٌ لَيْسَ لِى فِى قُرَيْشٍ أَهْلٌ وَلاَ عَشِيرَةٌ ، وَكَانَ لِى بَيْنَهُمْ أُمٌّ وَوَلَدٌ ، فَصَانَعْتُهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَتَوَدَّدْتُ لَهُمْ بِسَبَبِهِمْ حَتَّى لاَ يُؤْذُونِى فِيهِمْ .

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : يَا رَسُولَ اللهِ . دَعْنِى لأَضْرِبَ عُنُقَهُ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ نَافَقَ .

فَقَالَ الرَّسُولُ : وَمَا يُدْرِيكَ يَا عُمَرُ . . . ؟! لَعَلَّ اللهَ قَدِ اطَّلَعَ يَوْمَ بَدْرٍ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ !

وَعِنْدَئِذٍ نَزَلَ الْوَحْىُ عَلَى الرَّسُولِ بِقَوْلِ اللهِ :

(يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ) .

فَعَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ اللهَ قَدْ عَدَّ حَاطِبًا فِى الَّذِينَ آمَنُوا ، وَأَنَّ حَاطِبًا مُؤْمِنٌ حَقًّا وَلَيْسَ بِمُنَافِقٍ ، وَأَنَّ مَا أَتَاهُ مَا هُوَ إِلاَّ زَلَّةُ ضَعْفٍ قَدْ تُصِيبُ الإِنْسَانَ أَحْيَانًا

دُونَ إِرَادَتِهِ !

وَسَارَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ وَوِجْهَتُهُمْ مَكَّةُ ، وَقَدْ أَمَّلَ الرَّسُولُ أَلاَّ تَأْخُذَ قُرَيْشٌ بِمَسِيرِهِمْ خَبَرًا ، حَتَّى لا تَسْتَعِدَّ لِحَرْبِهِمْ ، وَهُوَ الْحَرِيصُ عَلَى أَنْ يَتِمَّ لَهُ فَتْحُ مَكَّةَ دُونَ إِرَاقَةِ دِمَاءٍ .

وَأَرْسَلَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِبَعْضِ الرِّجَالِ عُيُونًا لِلْجَيْشِ يَرْقُبُونَ لَهُ الطَّرِيقَ ، فَعَادَ بَعْضُهُمْ إِلَى الرَّسُولِ ، وَمَعَهُمْ رَجُلٌ مِنْ قَبَائِلِ هَوَازِنَ . وَبِسُؤَالِهِ ظَهَرَ أَنَّهُ جَاسُوسٌ لَهَا يَجْمَعُ لَهَا الأَخْبَارَ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ ؛ وَاسْتَجْوَبَهُ الرَّسُولُ فَعَلِمَ مِنْهُ أَنَّ هَوَازِنَ تَجْمَعُ الْجُمُوعَ لِمُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنَّهُمْ قَدْ أَرْسَلُوا إِلَى ثَقِيفٍ بِالطَّائِفِ لِتُعِينَهُمْ فِى هٰذَا الأَمْرِ . فَأَمْهَلَتْهُمْ حَتَّى تُرْسِلَ إِلَى جَرَشَ مِنْ أَعْمَالِ دِمَشْقَ لِتَأْتِى مِنْهَا بِأَدَوَاتٍ مِنْ أَدَوَاتِ الْحَرْبِ الثَّقِيلَةِ : مِثْلِ الدَّبَّابَاتِ وَالْمَنْجَنِيقِ . فَأَمَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الرَّجُلِ وَعَدَمِ إِطْلاَقِ سَرَاحِهِ .

وَسَارَ الْجَيْشُ ، وَفِى طَرِيقِهِ الْتَقَى بِهِ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمّ الرَّسُولِ . وَقَدْ غَادَرَ مَكَّةَ فِى آلِهِ وَعِيَالِهِ قَاصِدًا الْمَدِينَةَ لِعَرْضِ إِسْلاَمِهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ .

وَفَرِحَ مُحَمَّدٌ ﷺ لِلِقَاءِ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ . وَسُرَّ لإِعْلاَنِهِ إِسْلاَمَهُ . وَبَعَثَ بِأَهْلِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ . أَمَّا الْعَبَّاسُ فَقَدْ رَافَقَ الْجَيْشَ فِى مَسِيرِهِ .

وَالْتَقَى الْجَيْشُ أَيْضًا بِقَرِيبَيْنِ مِنْ أَقْرِبَاءِ النَّبِىِّ هُمَا : أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ابْنُ عَمِّ النَّبِىِّ . وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أُمَيَّةَ ابْنُ عَمَّتِهِ . فِى أَهْلٍ لَهُمَا . وَكَانَا يَقْصِدَانِ كَذٰلِكَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِمُبَايَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَلٰكِنَّهُمَا لَمَّا الْتَمَسَا مُقَابَلَةَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَأْذَنْ لَهُمَا النَّبِىُّ فِى ذٰلِكَ فَقَدْ كَانَا مِمَّنْ آذَوْهُ . وَنَالاَ مِنْهُ مَنَالاً عَظِيمًا وَهُوَ بِمَكَّةَ . وَتَقَدَّمَ الْعَبَّاسُ يَشْفَعُ لَهُمَا ، كَمَا تَقَدَّمَتْ لِذٰلِكَ أُمُّ سَلَمَةَ زَوْجُ النَّبِىِّ ، وَكَانَتْ هِىَ وَمَيْمُونَةُ مِمَّنْ صَاحَبَ النَّبِىَّ مِنْ زَوْجَاتِهِ فِى سَفَرِهِ . وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُمَيَّةَ أَخًا لأُمِّ سَلَمَةَ لأَبِيهَا . وَلٰكِنَّ النَّبِىَّ قَالَ :

لاَ حَاجَةَ لِى بِهِمَا . أَمَّا ابْنُ عَمِّى فَقَدْ نَالَنِى مِنْهُ السُّوءُ . وَأَمَّا ابْنُ عَمَّتِى وَصِهْرِى فَقَدْ قَالَ بِمَكَّةَ مَا قَالَ . . .

وَلَمَّا عَلِمَ أَبُو سُفْيَانَ بِرَفْضِ النَّبِىِّ لِمُقَابَلَتِهِ عَزَّ عَلَيْهِ ذٰلِكَ وَقَالَ : وَاللهِ

لَيُؤْذَنَنَّ لِى . أَوْ لآخُذَنَّ بِيَدِ ابْنِى هٰذَا . ثُمَّ لَنَذْهَبَنَّ فِى الأَرْضِ حَتَّى نَمُوتَ عَطَشًا وَجُوعًا .

فَرَقَّ لَهُ النَّبِىُّ . وَأَذِنَ بِدُخُولِهِ وَدُخُولِ صَاحِبِهِ إِلَيْهِ فَدَخَلاَ وَأَسْلَمَا .

وَسَارَ الْجَيْشُ فِى طَرِيقِهِ . وَلَمْ يَظْهَرْ أَىُّ شَىْءٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قُرَيْشًا قَدْ أَخَذَتْ عِلْمًا بِمَسِيرِهِ .

وَبَلَغَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مَرَّ الظَّهْرَانِ . وَهُوَ مَكَانٌ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ . وَهُنَاكَ عَسْكَرَ الْجَيْشُ فِى سَاحَةٍ مِنَ الأَرْضِ لاَ تَبْلُغُ الْعَيْنُ مَدَاهَا طولاً وَلاَ عَرْضًا . وَأَيْقَنَ الْعَبَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ إِذَا دَخَلَ بِهٰذَا الْجَيْشِ الْعَرَمْرَمِ مَكَّةَ عُنْوَةً ، فَإِنَّ قُرَيْشًا سَتَهُبُّ بِلاَ شَكٍّ لِمُقَاوَمَتِهِ . وَفِى ذٰلِكَ مَا فِيهِ مِنَ الْقَضَاءِ عَلَيْهَا .

وَفَكَّرَ الْعَبَّاسُ . فَرَأَى أَنَّ خَيْرَ حَلٍّ يُمْكِنُهُ أَنْ يُقَدِّمَهُ لِعَشِيرَتِهِ الَّتِى غَادَرَهَا بِالأَمْسِ . هُوَ أَنْ يَعْمَلَ عَلَى دَعْوَتِهَا لِلصُّلْحِ وَالْمُهَادَنَةِ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ .

وَفِى اللَّيْلَةِ الَّتِى عَسْكَرَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ . وَأَوْقَدُوا نِيرَانَهُمْ

الْكَثِيرَةَ الْمُتَعَدِّدَةَ حَتَّى أَضْحَتِ الصَّحْرَاءُ كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ وَنُورٍ. خَرَجَ الْعَبَّاسُ وَقَدْ رَكِبَ بَغْلَةَ رَسُولِ اللهِ الْبَيْضَاءَ يَسْتَشْرِفُ فَوْقَ رَبْوَةٍ عَالِيَةٍ، لَعَلَّهُ يَجِدُ حَطَّابًا، أَوْ صَاحِبَ لَبَنٍ، أَوْ إِنْسَانًا يَقْصِدُ مَكَّةَ، فَيَبْعَثَ مَعَهُ إِلَى قُرَيْشٍ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ فَيَسْتَأْمِنُوهُ.

وَبَيْنَمَا الْعَبَّاسُ فِي مَوْقِفِهِ هٰذَا يَسْتَشْرِفُ هُنَا وَهُنَاكَ، إِذْ بِهِ يَسْمَعُ صَوْتًا لِرَجُلَيْنِ يَتَحَدَّثَانِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ، فَأَنْصَتَ يَتَسَمَّعُ، فَإِذَا أَحَدُهُمَا يَقُولُ:

مَا رَأَيْتُ كَاللَّيْلَةِ نِيرَانًا قَطُّ وَلاَ عَسْكَرًا!

فَيَقُولُ الآخَرُ: هٰذِهِ وَاللهِ خُزَاعَةُ حَمَشَتْهَا الْحَرْبُ، أَيْ أَغْضَبَتْهَا وَهَيَّجَتْهَا تَهْيِيجًا شَدِيدًا!

فَيُجِيبُ الأَوَّلُ: خُزَاعَةُ أَقَلُّ وَأَذَلُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ هٰذِهِ نِيرَانَهَا وَعَسْكَرَهَا.

وَعَرَفَ الْعَبَّاسُ فِي صَوْتِ الْمُتَكَلِّمِ الأَوَّلِ صَوْتَ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ. فَرَفَعَ صَوْتَهُ مُنَادِيًا:

يَا أَبَا حَنْظَلَةَ..!!

فَجَاءَهُ صَوْتُ أَبِى سُفْيَانَ مُتَسَائِلاً : أَبُو الْفَضْلِ ؟!

أَجَابَ الْعَبَّاسُ : نَعَمْ .

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ ، وَقَدْ أَقْبَلَ عَلَى الْعَبَّاسِ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ ؛ وَكَانَ مَعَهُ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ :

مَالَكَ يَا أَبَا الْفَضْلِ ؟! وَمَا بِكَ ؟!

قَالَ الْعَبَّاسُ : وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ ! ! هٰذَا رَسُولُ اللهِ فِى النَّاسِ ، وَاصَبَاحَ قُرَيْشٍ وَاللهِ إِذَا دَخَلَ مَكَّةَ عُنْوَةً ! !

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : فَمَا الْحِيلَةُ ، فِدَاكَ أَبِى وَأُمِّى ؟!

قَالَ الْعَبَّاسُ : اِرْكَبْ فِى عَجُزِ الْبَغْلَةِ حَتَّى آتِى بِكَ رَسُولَ اللهِ . فَرَكِبَ أَبُو سُفْيَانَ الْبَغْلَةَ مَعَ الْعَبَّاسِ ، أَمَّا بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ ، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ فَقَدْ عَادَا إِلَى مَكَّةَ .

فَهَلْ يَا تُرَى كَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ أَحَسَّتْ بِخُرُوجِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهَا ، فَبَعَثَتْ بِهٰؤُلاءِ الثَّلاثَةِ يَتَشَوَّفُونَ ، لَعَلَّ أَحَدًا يُخْبِرُهُمْ خَبَرَهُ ؟! الأَرْجَحُ أَنَّهَا كَانَتْ

مُصَادَفَةً !

وَسَارَ الْعَبَّاسُ بِأَبِى سُفْيَانَ بَيْنَ عَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ وَنِيرَانِهِمْ . وَكُلَّمَا مَرَّا عَلَى نَارٍ نَظَرَ مَنْ حَوْلَهَا إِلَى الْبَغْلَةِ . فَيَعْرِفُونَ فِيهَا بَغْلَةَ الرَّسُولِ فَيَتْرُكُونَهَا تَمُرُّ حَتَّى أَتَتْ عَلَى نِيرَانِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ . فَنَظَرَ إِلَى الْبَغْلَةِ . فَرَأَى أَبَا سُفْيَانَ عَلَيْهَا . فَنَهَضَ مِنْ مَجْلِسِهِ وَهُوَ يَقُولُ :

أَبُو سُفْيَانَ عَدُوُّ اللهِ ؟! الْحَمْدُ للهِ الَّذِى أَمْكَنَنَا مِنْكَ ...!!

ثُمَّ أَسْرَعَ يَحُثُّ الْخُطَا إِلَى خَيْمَةِ رَسُولِ اللهِ لِيَسْتَأْذِنَهُ فِى ضَرْبِ عُنُقِ أَبِى سُفْيَانَ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَ الْعَبَّاسُ بِهِ إِلَيْهِ .

وَأَدْرَكَ الْعَبَّاسُ غَرَضَهُ . فَأَسْرَعَ وَدَخَلَ عَلَى الرَّسُولِ وَعُمَرُ يَسْتَأْذِنُهُ فِى ضَرْبِ عُنُقِ أَبِى سُفْيَانَ . فَقَالَ الْعَبَّاسُ لِلرَّسُولِ : يَا رَسُولَ اللهِ . إِنِّى قَدْ أَجَرْتُهُ .

وَجَلَسَ الْعَبَّاسُ إِلَى الرَّسُولِ وَهُوَ يَقُولُ : وَاللهِ لاَ يُحَادِثُهُ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ غَيْرِى .

فَاحْتَدَّ عُمَرُ عَلَى الْعَبَّاسِ . وَاحْتَدَّ الْعَبَّاسُ عَلَى عُمَرَ ؛ وَلَمَّا كَثُرَ الْجِدَالُ بَيْنَهُمَا وَزَادَتِ الْمُنَاقَشَةُ ، قَالَ الرَّسُولُ لِلْعَبَّاسِ : اِذْهَبْ بِهِ يَا عَبَّاسُ إِلَى رَحْلِكَ ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَأْتِنِى بِهِ .

وَأَصْبَحَ الْعَبَّاسُ وَأَبُو سُفْيَانَ عِنْدَ الرَّسُولِ . وَقَالَ الرَّسُولُ لأَبِى سُفْيَانَ : وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ ! ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ ؟

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى ! مَا أَحْلَمَكَ ، وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ ! ! وَاللهِ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنْ لَوْكَانَ مَعَ اللهِ إِلٰهٌ غَيْرُهُ مَا أَغْنَى عَنِّى شَيْئًا . قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ : وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ ! ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّى رَسُولُ اللهِ ؟

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى ! مَا أَحْلَمَكَ ، وَأَكْرَمَكَ ، وَأَوْصَلَكَ ! ! أَمَّا هٰذِهِ فَإِنَّ فِى النَّفْسِ مِنْهَا حَتَّى الآنَ شَيْئًا .

فَأَسْرَعَ الْعَبَّاسُ يَقُولُ لأَبِى سُفْيَانَ : وَيْحَكَ ! ! أَسْلِمْ ، وَاشْهَدْ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عُنُقُكَ .

فَلَمْ يَسَعْ أَبَا سُفْيَانَ إِلاَّ أَنْ يُسْلِمَ ، وَأَنْ يَشْهَدَ بِشَهَادَةِ الْحَقِّ .

وَقَالَ الْعَبَّاسُ لِلرَّسُولِ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ الْفَخْرَ فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا .

قَالَ النَّبِيُّ : نَعَمْ . مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ . وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ . وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ .

وَلَمَّا مَضَى الْعَبَّاسُ وَأَبُو سُفْيَانَ مُنْصَرِفَيْنِ مِنْ حَضْرَةِ النَّبِيِّ ، اِسْتَوْقَفَ النَّبِيُّ الْعَبَّاسَ . وَقَالَ لَهُ : يَا عَبَّاسُ ، اِحْبِسْهُ بِمَضِيقِ الْوَادِي عِنْدَ مَدْخَلِ الْجَبَلِ . حَتَّى تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ اللهِ فَيَرَاهَا .

فَسَارَ الْعَبَّاسُ بِأَبِي سُفْيَانَ إِلَى مَدْخَلِ الْجَبَلِ . وَهُنَاكَ عَاقَهُ عَنِ الْمَسِيرِ إِلَى مَكَّةَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِ جُنُودُ الْمُسْلِمِينَ فِي وَحْدَاتِهَا وَكَتَائِبِهَا .

فَكَانَتْ كُلَّمَا مَرَّتْ قَبِيلَةٌ تَحْمِلُ رَايَتَهَا سَأَلَ أَبُو سُفْيَانَ الْعَبَّاسَ : مَنْ هٰذِهِ ؟! فَيُسَمِّيهَا لَهُ الْعَبَّاسُ ، حَتَّى أَتَتْ كَتِيبَةُ رَسُولِ اللهِ الْخَضْرَاءُ . وَرِجَالُهَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ . لاَ يُرَى مِنْهُمْ إِلاَّ الْحَدَقُ مِنَ الْحَدِيدِ . فَسَأَلَ أَبُو سُفْيَانَ : وَمَنْ هٰؤُلاَءِ ؟

فَأَجَابَ الْعَبَّاسُ : هٰذَا رَسُولُ اللهِ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ .

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ ، وَقَدْ أُخِذَ مِمَّا رَأَى : مَا لأَحَدٍ بِهٰؤُلاَءِ قِبَلٌ وَلاَ طَاقَةٌ . وَاللهِ يَا أَبَا الْفَضْلِ ؛ لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ الْغَدَاةَ عَظِيمًا .

قَالَ الْعَبَّاسُ : يَا أَبَا سُفْيَانَ ؛ إِنَّهَا النُّبُوَّةُ .

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : فَنِعْمَ إِذَنْ .

وَانْطَلَقَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مَكَّةَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءَهَا صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَقُولُ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ هٰذَا مُحَمَّدٌ قَدْ جَاءَكُمْ فِيمَا لاَ قِبَلَ لَكُمْ بِهِ ؛ فَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ .

وَسَارَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ نَحْوَ مَكَّةَ حَتَّى بَلَغَ ذِى طُوًى ، وَهُنَاكَ قَسَّمَ النَّبِىُّ جَيْشَهُ : فَجَعَلَ عَلَى الْجَنَاحِ الأَيْمَنِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ مِنْ أَسْفَلَ . وَجَعَلَ عَلَى الْجَنَاحِ الأَيْسَرِ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ مِنْ شَمَالِهَا ، وَجَعَلَ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ مِنْ جَانِبِهَا الْغَرْبِىِّ ؛ أَمَّا النَّبِىُّ فَكَانَ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ ، وَكَانَ دُخُولُهُمْ مَكَّةَ مِنْ أَعْلاَهَا .

وَأَوْصَى النَّبِىُّ الْمُسْلِمِينَ ألاَّ يُقَاتِلُوا إلاَّ مَنْ يُقَاتِلُهُمْ ، وَألاَّ يُقْدِمُوا عَلَى إرَاقَةِ دِمَاءٍ إلاَّ إذَا دُفِعُوا إلَى ذٰلِكَ دَفْعًا ، إلاَّ بِضْعَةَ عَشَرَ شَخْصًا سَمَّاهُمُ الرَّسُولُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَأَبَاحَ لَهُمْ قَتْلَهُمْ أَيْنَمَا وُجِدُوا ، وَإنْ كَانُوا مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ .

وَلٰكِنَّ الْحَمِيَّةَ أَخَذَتْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ عِنْدَمَا تَحَرَّكَ جَنَاحُهُ لِلْمَسِيرِ ، فَنَادَى نِدَاءَ حَرْبٍ لَمْ يَأْمَنِ النَّبِىُّ مَعَهُ أَنْ يَصْدُرَ مِنْ سَعْدٍ مَا لاَ يَوَدُّهُ الرَّسُولُ مِنْ إرَاقَةِ الدِّمَاءِ ، لِذَا أَمَرَ بِعَزْلِ سَعْدٍ وَجَعَلَ مَكَانَهُ ابْنَهُ قَيْسًا .

وَتَحَرَّكَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ لِدُخُولِ مَكَّةَ الَّتِى أَلْقَتْ سِلاَحَهَا وَأَغْلَقَ أَهْلُهَا عَلَيْهِمْ دُورَهُمْ ، يَنْظُرُونَ مِنْ مَنَافِذِهَا إلَى دُخُولِ جَيْشِ الإسْلاَمِ ، فِى مَهْدِ الإسْلاَمِ .

وَدَخَلَ مُحَمَّدٌ ﷺ مَكَّةَ ... ! الَّتِى خَرَجَ مِنْهَا مُتَخَفِّيًا بِلَيْلٍ ... ! مَكَّةَ الَّتِى خَرَجَ مِنْهَا هَارِبًا مِنْ قُرَيْشٍ ، لاَ يُرَافِقُهُ إلاَّ صَدِيقُهُ أَبُو بَكْرٍ وَتَابِعٌ لَهُ ... ! دَخَلَهَا وَقَدْ فَتَحَتْهَا لَهُ قُرَيْشٌ ... ! وَبِرِفْقَتِهِ عَشَرَةُ آلاَفٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ... !

يَا أَللهُ !!.. لَحْظَةٌ يَرْجُفُ لَهَا الْقَلْبُ هَيْبَةً ...! وَتُحْنَى لَهَا الرُّءُوسُ خُشُوعًا ..!

وَدَخَلَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَقَدْ حَنَى رَأْسَهُ للهِ شُكْرًا حَتَّى كَادَتْ أَنْ تَمَسَّ لِحْيَتُهُ ظَهْرَ رَاحِلَتِهِ .

وَدَخَلَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا دُونَ مُقَاوَمَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ . إِلاَّ مَا كَانَ مِنَ النَّاحِيَةِ الَّتِى دَخَلَ مِنْهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ . فَهُنَاكَ كَانَ يَقْطُنُ أَشَدُّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلْمُسْلِمِينَ ، أَمْثَالُ : عِكْرِمَةَ ابْنِ أَبِى جَهْلٍ . وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ . وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو ؛ فَلَمْ يَطِبْ لِهٰؤُلاءِ أَنْ يَدْخُلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ دُونَ مُقَاوَمَةٍ . فَقَاتَلُوهُمْ مَعَ مَنْ حَرَّضُوهُمْ لِلْقِتَالِ مَعَهُمْ إِلَى أَنْ فَرُّوا جَمِيعًا مُنْهَزِمِينَ أَمَامَ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَسْفَرَ هٰذَا الْقِتَالُ عَنْ قَتْلِ بِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً مِنْ قُرَيْشٍ . وَرَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

وَغَضِبَ الرَّسُولُ لِما كَانَ مِنْ قِتَالِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ . وَلٰكِنَّهُ حِينَمَا قِيلَ لَهُ : إِنَّ خَالِدًا لَمْ يُقَاتِلْ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ دُفِعَ إِلَى ذٰلِكَ دَفْعًا . قَالَ : الْخَيْرُ فِيمَا

اخْتَارَهُ اللهُ .

وَضُرِبَتْ لِلنَّبِيِّ قُبَّةٌ بِأَعْلَى مَكَّةَ نَزَلَ فِيهَا ، وَقِيلَ لَهُ :

يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أَلاَ تَنْزِلُ بِدَارِكَ ؟

أَجَابَ الرَّسُولُ : وَهَلْ تُرِكَ لِي بِمَكَّةَ دَارٌ ؟!

قِيلَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ اِنْزِلْ بِأَيَّةِ دَارٍ تُحِبُّ .

قَالَ : لاَ ، لَنْ أَنْزِلَ دُورًا .

وَأَقَامَ الرَّسُولُ بِقُبَّتِهِ حَتَّى إِذَا مَا هَدَأَتِ الْحَالُ ، وَاطْمَأَنَّ النَّاسُ ، تَوَجَّهَ إِلَى بَيْتِ اللهِ ، فَطَافَ بِهِ سَبْعًا عَلَى رَاحِلَتِهِ . ثُمَّ دَعَا بِعُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ ، فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِمَفَاتِيحِ الْكَعْبَةِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ بِهَا فَتَحَ الْكَعْبَةَ ثُمَّ وَقَفَ عَلَى بَابِهَا ، فَقَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ ، لاَ شَرِيكَ لَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ . ثُمَّ تَلاَ عَلَى قُرَيْشٍ قَوْلَ اللهِ :

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

ثُمَّ قَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، مَا تَظُنُّونَ أَنِّى فَاعِلٌ بِكُمْ ؟

قَالُوا : خَيْرًا ، أَخٌ كَرِيمٌ ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ .

قَالَ : اِذْهَبُوا ، فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ .

كَلِمَاتٌ بِلاَ شَكٍّ سَكَتَتْ قُرَيْشٌ لَحْظَةً لَهَا ... حَتَّى تَفَهَّمَتْ مَعْنَاهَا الْجَلِيلَ ، وَأَدْرَكَتْ مَغْزَاهَا الْكَبِيرَ ... ! وَمِنْ ثَمَّ ابْتَدَأَ يَسْرِى إِلَى نُفُوسِ أَبْنَائِهَا الإِعْجَابُ وَالتَّقْدِيرُ ، وَالإِعْزَازُ وَالْحُبُّ لِهٰذَا الإِنْسَانِ السَّامِى الْكَامِلِ النَّبِيلِ الْمُتَمَثِّلِ أَمَامَهُمْ فِى شَخْصِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، يَرْتَفِعُ بِهِ سُمُوُّ نَفْسِهِ . وَنَقَاءُ رُوحِهِ ، فَوْقَ مُسْتَوَى الْبَشَرِيَّةِ ، وَمَا فِيهَا مِنَ الأَحْقَادِ وَالضَّغَائِنِ !

وَدَخَلَ مُحَمَّدٌ الْكَعْبَةَ ، فَأَمَرَ بِمَحْوِ مَا فِيهَا مِنْ رُسُومٍ وَصُوَرٍ . ثُمَّ جَعَلَ يُشِيرُ بِعَصَاهُ إِلَى الأَصْنَامِ وَالتَّمَاثِيلِ الَّتِى بِدَاخِلِ الْكَعْبَةِ وَخَارِجِهَا وَهُوَ يَقُولُ :

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) .

وَكُسِّرَتِ الأَصْنَامُ وَالتَّمَاثِيلُ جَمِيعًا ، وَبِذٰلِكَ طَهَّرَ مُحَمَّدٌ ﷺ بَيْتَ اللهِ مِنَ الأَوْثَانِ الَّتِى نَادَى مُنْذُ أَمَدٍ طَوِيلٍ بِتَطْهِيرِهِ مِنْهَا .

وَصَعِدَ بِلاَلٌ فَوْقَ الْكَعْبَةِ مُؤَذِّنًا لِلصَّلاَةِ ، وَأَمَّ مُحَمَّدٌ ﷺ النَّاسَ فَصَلَّى بِهِمْ بِجِوَارِ بَيْتِ اللهِ وَفِى رِحَابِ كَعْبَتِهِ ، ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللهِ عَلَى الصَّفَا يَدْعُو اللهَ . وَرَأَى الأَنْصَارُ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ فَتْحِ بَلَدِهِ مَكَّةَ وَمِنْ تَطْهِيرِهَا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَهُمْ مُتَخَوِّفُونَ :

أَتَرَوْنَ رَسُولَ اللهِ إِذْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ أَرْضَهُ وَبَلَدَهُ يُقِيمُ بِهَا ؟!

فَلَمَّا فَرَغَ الرَّسُولُ مِنْ دُعَائِهِ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَسْتَفْسِرُهُمْ مَا قَالُوا ، فَسَكَتُوا عَمَّا قَالُوهُ ، فَمَا زَالَ بِهِمْ حَتَّى أَخْبَرُوهُ . فَقَالَ : مَعَاذَ اللهِ ! الْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ .

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ عَثَرَتْ خُزَاعَةُ بِمَكَّةَ عَلَى رَجُلٍ مُشْرِكٍ مِنْ هُذَيْلٍ كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ وِتْرٌ فَقَتَلَتْهُ .

فَلَمَّا بَلَغَ الرَّسُولَ ذٰلِكَ غَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا ، وَقَامَ يَخْطُبُ فِى النَّاسِ قَائِلاً :

يَاأَيُّهَا النَّاسُ . إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ ، فَهِيَ حَرَامٌ

إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ فَلاَ يَحِلُّ لامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ فِيهَا دَمًا . أَوْ يَعْضِدَ فِيهَا شَجَرًا . لَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ كَانَ قَبْلِى . وَلاَ تَحِلُّ لأَحَدٍ يَكُونُ بَعْدِى . وَلَمْ تَحِلَّ لِى إِلاَّ هذِهِ السَّاعَةَ غَضَبًا عَلَى أَهْلِهَا . ثُمَّ رَجَعَتْ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ . فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ . فَمَنْ قَالَ لَكُمْ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ قَدْ قَاتَلَ فِيهَا . فَقُولُوا : إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَلَّهَا لِرَسُولِهِ . وَلَمْ يُحِلَّهَا لَكُمْ .

مَا أَعْظَمَ هٰذَا ! وَمَا أَرْوَعَهُ ... ! وَمَسَّتْ مَوَاقِفُ مُحَمَّدٍ ﷺ هٰذِهِ قُلُوبَ أَهْلِ مَكَّةَ . وَأَزَالَتْ عَنْ نُفُوسِهِمْ غَشَاوَتَهَا . وَبَدَّدَتْ ظُلُمَاتِهَا ؛ فَرَاحُوا إِلَى أَصْنَامِهِمْ وَأَوْثَانِهِمُ الَّتِى بِبُيُوتِهِمْ يُكَسِّرُونَهَا وَيَهْدِمُونَهَا . ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَى الرَّسُولِ يُبَايِعُونَهُ ، وَيُسْلِمُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ .

وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ بِأَبِيهِ أَبِى قُحَافَةَ يَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ – وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ كُفَّ بَصَرُهُ – فَلَمَّا رَآهُ النَّبِىُّ قَالَ لأَبِى بَكْرٍ : هَلاَّ تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِى بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ ؟!

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللهِ ، هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِىَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِىَ أَنْتَ

إِلَيْهِ .

فَأَجْلَسَهُ النَّبِىُّ بَيْنَ يَدَيْهِ . وَمَسَحَ لَهُ صَدْرَهُ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَسْلِمْ . فَأَسْلَمَ وَأَسْلَمَ كَثِيرٌ مِنْ طُغَاةِ الْمُشْرِكِينَ ، وَطَاغِيَاتِ الْمُشْرِكَاتِ : مِثْلُ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِى جَهْلٍ . وَذٰلِكَ بَعْدَ أَنِ اسْتَأْمَنَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ . وَخَرَجَتْ فِى طَلَبِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مَعَ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ . وَمِثْلُ هِنْدٍ بِنْتِ عُتْبَةَ امْرَأَةِ أَبِى سُفْيَانَ الَّتِى مَضَغَتْ كَبِدَ حَمْزَةَ عَمِّ الرَّسُولِ فِى مَوْقِعَةِ أُحُدٍ . فَقَدْ أَسْلَمَتْ . وَأَهْدَتْ إِلَى النَّبِىِّ جَدْيَيْنِ مَشْوِيَّيْنِ . وَقِرْبَةَ لَبَنٍ فَتَقَبَّلَ هَدِيَّتَهَا .

وَعَفَا الرَّسُولُ عَنْ أَكْثَرِ مَنْ أَمَرَ بِقَتْلِهِمْ . وَأَبَاحَ دَمَهُمْ . بَعْدَ أَنِ اسْتُؤْمِنَ لَهُمْ . وَكَانَ فِيهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِى السَّرْحِ الَّذِى كَانَ يَكْتُبُ الْوَحْىَ لِلنَّبِىِّ بِالْمَدِينَةِ . ثُمَّ ارْتَدَّ إِلَى مَكَّةَ مُشْرِكًا زَاعِمًا أَنَّهُ كَانَ يُزَيِّفُ الْوَحْىَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ .

وَأَقَامَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِمَكَّةَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا . يَأْتِى النَّاسُ إِلَيْهِ . فَيَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا وَجَمَاعَاتٍ . وَهُوَ لاَ يَكُفُّ عَنِ التَّسْبِيحِ لله تَعَالَى . وَتَرْدِيدِ

آيَاتِهِ الَّتِى أَنْزَلَهَا عَلَيْهِ :

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ؛ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) .

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٨٦٣٢
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 3532 - 6

١ / ٩١ / ٣٥٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)